إشكالات التداخل التاريخي..
قرامطة البحرين أنموذجًا

محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ١٤ محرم ١٤٢٩هـ الموافق ٢٢ يناير ٢٠٠٨م

عبدالله العسكر
أستاذ جامعي

سأتحدث في هذه الورقة عن قضية التداخل التاريخي، ولن أتحدث عنها من زاوية نظرية، بمعنى لن أتناول القضية من الناحية المنهجية واللغوية، ولكنني سأختار بعض الأمثلة المنتقاة التي تمثل هذه القضية، كتاريخ قرامطة البحرين وتداخلها مع الفاطميين والاسماعيليين لدرجة يصعب معها تبيُّن الحق. وأنا أعد هذا المبحث ضربًا من ضروب قراءة تاريخ قرامطة البحرين والإمارة الجنابية؛ وهي قراءة قادت لآراء جديدة أتحمل ما ورد فيها من الخطأ والصواب، وأفيدكم أنني اضطررت لأبسط القول عن بعض مصادري، أما المراجع العربية والأجنبية، فلن أتحدث عنها، وهي مبثوثة في هوامش الكتاب.

تاريخ قرامطة البحرين

في عام ١٨٦٢م (١٢٧٨هـ) نشر المستشرق الهولندي المعروف دي خويه (de goeje) أول دراسة معمقة عن قرامطة البحرين، فكانت بذلك فتحًا لطلاب التاريخ الإسلامي، كالدكتور برنارد لويس الذي أنجز أطروحة الدكتوراة عن (أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية) في عام ١٩٤٠م (١٣٥٩هـ)، ومنذ ذلك الحين لم تحدث تطورات كثيرة ذات بال فيما يخص تاريخ قرامطة البحرين ومصادر هذا التاريخ.

وحتى عندما قدم الدكتور عبد العزيز الدوري لترجمة أطروحة الدكتور برنارد لويس للعربية عام ١٩٤٧م (١٣٦٦هـ) كان يتمنى أن يجد الباحثون مصادر جديدة تساهم في كشف المزيد من هذا التاريخ، وأنا أكرر هذه الأمنية محاولًا تفسير هذا التاريخ، انطلاقًا من المصادر التي اعتمد عليها الدكتور برنارد لويس ومن قبله دي خوية تفسيرا يقوم على استعمال مناهج الدراسات الاجتماعية الحديثة لسبر أغوار الروايات التاريخية وتفكيكها، ولا أقارن عملي بعمل رواد هذا التاريخ.

أشير قبل أن أدخل في صلب الموضوع إلى أن استعانة الباحثين بمناهج الدراسات الاجتماعية يبرر لها اعتبار دعوة وحركة القرامطة، وما تمخض عنها حركة اجتماعية في أساسها، لبست لبوس الدين كعادة الحركات والدعوات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة في العصور الإسلامية الوسيطة. لذا، فإن الباحثين يستقصون معلومات سوسيو تاريخية عن هذه الحقبة مستبعدين الأخبار ذات الصبغة الدعائية، وذلك عبر محاكمة الأخبار التاريخية بمنطق العقل والعصر الذي وردت فيه. والتي يواجهون في تحريها صعوبة؛ للسرية التي كان القرامطة يمارسونها في معتقداتهم، وللخلط بين شخصيات حقيقية وأخرى تعدُّ وهمية، ثم لعدم الجزم بنسبهم.

ولعل كل ذلك مرده إلى تشنيع المصادر العربية الأولى بكل ما يمت إلى القرامطة بصلة، جاء ذلك بسبب تحفظ المجتمع الإسلامي آنذاك وخضوعه لما نسميه العقلية الدينية، وهي عقلية ترى أن المعارضة أو الخروج على السلطة السياسية خروج ومروق عن الدين بالجملة، ونحن لا نناقش هذه النقطة بالذات، لاعتقادنا بأن قرامطة البحرين ليسوا بأهل دين أصلًا، وإن انتسابهم وتشيعهم للاسماعيليين إنما تم بسياسة تهدف لشراء الأصوات الشعبية في الأحساء والقطيف التي كانت ساخطة على السلطة المركزية في بغداد.

لقد قامت حركة القرامطة المعروفة بإمارة الجنابيين في الأحساء والقطيف، واستمر حكمها زهاء مائة وخمسة عشر عامًا وأكثر، استطاعت خلالها أن تمد نفوذها لتشمل منطقة واسعة. ويعتبر أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي هو مؤسس إمارة القرامطة، خلفه بعد ذلك خمسة من أبنائه، حتى سقطت الإمارة على يد زعيم الثعالبة الأصفر بن أبي الحسن الثعلبي عام ١٠٠٨م (٣٩٨هـ). ولن أستعرض تاريخ الإمارة السياسي أو العسكري فهو معروف لكم وليس لدي جديد، ولكنني أرغب أن أشير باقتضاب لمصادر هذه الورقة.

ومصادر قرامطة البحرين وإمارة الجنابيين قليلة ومتناثرة، أغلبها مصادر سنية، وأقدم هذه المصادر السنية كتاب (تاريخ الرسل والملوك) للطبري المتوفى سنة ٩٢٢م (٣١١هـ)، وآخر أخبار القرامطة عنده تنتهي بسنة ٩٠٦م (٢٩٤هـ). ويمثل الطبري أقدم مصدر للحركات والدعوات المسماة بالباطنية رغم تواضع اطلاعه على عقائد أهل الملل والنحل والفرق الدينية التي لم يكن يعير للاختلافات الداخلية فيها أدنى اهتمام. وتعبر ثقافته عن نظرة البغدادي التقليدية والمحدودة في زمانه.

بعد ذلك، يأتي كتاب الطبري الذي وضعه عريب بن سعيد، المتوفى سنة ٩٨٠م (٣٧٠هـ)، وينتهي بحوادث سنة ٩٣٢م (٣٢٠هـ)، وفيه تحدث عن بعض الأعمال التي قام بها قرامطة البحرين. ثم يأتي كتابا (مروج الذهب)، (والتنبيه والإشراف) للمسعودي المتوفى سنة ٩٥٦م (٣٤٤هـ)، وفيهما وقف عند وفاة زعيم قرامطة أبو طاهر الجنابي المتوفى سنة ٩٤٤م (٣٢٢هـ)، وكان المسعودي قد اطلع على كتاب ابن رزام المفقود، واطلع على مبادئ الدعوة الباطنية، كما استقى ـ على ما يبدو ـ معلوماته من محادثات له مع أشخاص ينتسبون إلى القرامطة.

وإذا كان الطبري هو أقدم مؤرخ سني للقرامطة، فإن حمزة

الأصفهاني الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هو أهم مؤرخ سني، وكتابه (سني ملوك الأرض والأنبياء) كان قد بحث فيه أعمال القرامطة العسكرية فقط، إلا أنه بحث في أحوال بغداد والدولة العباسية في فترة القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، وزودنا بصورة عن كثرة الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية، وعن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي عصفت بالدولة العباسية، فضلًا عن صورة الصراع الطبقي الحاد بين الطبقة الأرستقراطية وعامة الشعب.

هناك أيضًا كتاب (الكامل) لابن الأثير المتوفى سنة ١٢٣٤م (٦٣١هـ)، وهناك كتاب ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابئي الذي تناول فيه القرامطة منذ نشأتهم وتاريخهم حتى سنة وفاته. وهو مؤرخ مثقف، اطلع على العلاقة بين القرامطة والفاطميين.

وهناك مصادر اسماعيلية مهمة، بيد أن نشرها قد تأخر لعدم قبول أوساط المثقفين السنة لها من جانب، ولتكتم أصحابها عليها من جانب آخر. ومن المصادر الإسماعيلية كتاب عبد الله بن رزام في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي ضاع بأكمله سوى بعض النقولات، وهو ذو صبغة دينية، وتاريخه مشوش، لذا انتقده المؤرخون.

ثم هناك كتاب السلوك لبهاء الدين الجندي المتوفى سنة ١٣٣١م (٧٣٢هـ)، وهناك كتاب (عيون الأخبار) للداعي إدريس اليماني، ويقع في سبعة مجلدات، ويبحث في تاريخ الإسماعيلية، وكتاب (المسالك والممالك) للرحالة ابن حوقل، وكتاب (سفرنامه) للرحالة والجاسوس الاسماعيلي ناصر خسرو، وفي هذين الأخيرين مباحث قيمة عن قرامطة البحرين.

وأما أعظم كتاب في هذا الصدد فهو كتاب (الملل والنحل) لابن حزم المتوفى سنة ١٠٦٤م (٤٥٩هـ)، و(الملل والنحل) للشهرستاني المتوفى سنة ١١٥٢م (٥٤٨هـ)، وهما من وطدا التأليف في التاريخ

الديني، حتى اعتبر بعض المؤرخين كتابيهما مباحث دينية وليس تاريخية.

ومن الكتب أيضًا كتاب (فرق الشيعة) المنسوب للنوبختي المتوفى سنة ٩٢٢م (٣١٠هـ)، وهو عالم من علماء الشيعة الاثني عشرية، عرف باتزانه وتعدد مصادره وعمق بحوثه في فرق الشيعة ومذاهبهم الدينية.

التداخل التاريخي

يرى الدكتور برنارد لويس أن تداخلا عجيبا قد حصل بين الفرق الباطنية والإسماعيلية والفاطمية، وهو تداخل يشمل المعتقد والتاريخ والتأويل والنسب. وفيما يخص قرامطة البحرين، أدى ذلك - ولا يزال - إلى غموض واسع اختلف معه المؤرخون القدامى والمحدثين اختلافًا بينا. وشخصيًا، أميل لرأي الدكتور برنارد لويس، وسأورد فيما يلي ثلاثة أمثلة من التداخل وآراء بعض المؤرخين حولها، ثم سأعقب عليها برأيي الخاص الذي اعتمدته بعد دراسة مصادري.

أولًا: آراء بعض المؤرخين في نسب القرامطة:

- يرى الطبري أن الفاطميين من نسل إسماعيل بن جعفر وابنه محمد، ولا يعتبر قرامطة البحرين أو الشام من الفاطميين.
- يفترض ثابت بن سنان شيئًا من العلاقة بين الفاطميين والقرامطة ولكنه يوافق الطبري فيما عدا ذلك.
- يرى ابن رزام أن الفاطميين والقرامطة سواء في النسب والمذهب، ويرى أن عبد الله بن ميمون القداح القرمطي هو الزعيم الروحي والجد الحقيقي للفاطميين، وعلى ذلك، ليس هناك ما يربط بين القرامطة والفاطميين بإسماعيل بن جعفر أو ابنه محمد.

- دي ساسي، ودوزي، وهامر، وكاترميز، وكيورد، وبلوشيه، ودي خوية يتبنون رواية ابن زام، وهم يرون أن الاسماعيلية والقرمطية والفاطمية أسماء مختلفة لحركة واحدة.
- يرى كازنوفا أن القرامطة جماعة مستقلة عما سواها، انضمت إلى الاسماعيلية لأسباب تكتيكية.
- ما سينيون يرى أن الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة حركة واحدة أوجدها إسماعيل وأستاذه أبو الخطاب

أنا أرى أن قرامطة البحرين جماعة لا يجمعهم نسب واحد، وهم لا يمتون بأي صلة للاسماعيليين أو الفاطميين، كما أنهم أصحاب دعوى دينية وسياسية، كونوا خليطا من تقاليد محلية وأخرى مستوردة جاءت مع القادمين من العراق وفارس.

ثانيًا: أصل قرامطة البحرين

- ابن حوقل، ودي خوية قالا بأن حمدان أرسل قرمط أبا سعيد إلى البحرين وأمره بالدعوة.
- ثابت بن سنان قال بأن يحي بن المهدي رسول الإمام هو أول داعٍ في البحرين، وكان أبو سعيد من أهل البحرين قد اعتنق دعوة القرامطة.
- عبد الجبار قال بأن الإمام أرسل إلى البحرين داعيا لم يسمه، فاتبعه قوم منهم أب وسعيد، وكان أبو سعيد الداعي أبو الطمامي، وقد قتله أخيرًا وتولى الزعامة وادعى أنه ممثل الإمام المهدي (محمد بن عبد الله بن الحنفيه) الذي وعد بظهوره عام ٩١٢م (٣٠٠هـ).
- النوبختي يرى أن القرامطة فرقة انفصلت من المباركية. وعلى هذا، فهم إسماعيليون منفصلون.

ما أراه، أن هناك خلطًا وتداخلًا واسعًا بين أسماء عديدة، وأحسب أن أبا سعيد يحيى بن بهرام الجنابي من أهل البحرين،

اعتنق المذهب القرمطي ـ ولا أقول الاسماعيلي ـ عن طريق بعض الدعاة، منهم أبو زكريا يحيى بن المهدي الطمامي ـ أو الصمامي كما حقق اسمه برنارد لويس، ومنهم زكريا الفارسي المجوسي الذي عاش في الأحساء، ومنهم علي بن المعلى بن حمدان. وعليه، فقد رفع قرامطة البحرين شعارات مختلفة، منها أن إمامهم هو محمد بن الحنفية، ثم في فترة أخرى جعلوه إسماعيل بن جعفر. وهذه الشعارات المتعددة هي التي جعلت المؤرخين يختلفون في أصل قرامطة البحرين في كونهم إسماعيلية أم حنفية، والله أعلم.

ثالثًا: دين قرامطة البحرين

يغلب الظن أن آثارًا مجوسية ومزدكية وثنوية، فضلًا عن تعاليم فلسفية كانت هي السند الأيدولوجي لدعوة قرامطة البحرين الدينية، وكانت تلك الثقافات منتشرة في الأحساء والهفوف بسبب الصلات التجارية والسكانية بينهما وبين فارس والعراق وجزيرة أوال (مملكة البحرين حاليا) وهذه الحركة كانت مدفوعة بأسباب اجتماعية، يأتي على رأسها حالة الفقر والتردي المنتشرة في الأحساء والقطيف منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وهذا مما لا يمكن دفعه وإنكاره.

ومن الأسباب أيضًا توسع طبقة الفلاحين الفقراء الذين كانوا يشتغلون بما يشبه السخرة وهؤلاء لم يكونوا يؤمنون سوى معيشتهم اليومية وحسب. وقد توسعت هذه الطبقة التي كانت تئن من ظلم ملاك المزارع والعيون ومطاحن الغلال والدقيق، وانتشرت بينها الأمراض وتفشى الجهل، وفيها قال الطبري أن أغلب أتباع القرامطة كانوا من الفلاحين، فيما ذكر الغزالي أن خطر الهرطقة الرئيس إنما تمثل في استقطابها الطبقات العاملة وأهل الصناعات والحرف.

وقد تردد بيتا من الشعر في أدبيات القرامطة في كل مكان منسوب للمتنبي يصف قائله حالته الاقتصادية المتردية:

تلوم على تركي الصلاة خليلتي فقلت اغربي عن ناظري أنت طالق
فو الله لا صليت لله مفلسًا يصلي له الشيخ الجليل وفائق
لماذا أصلي؟ أين بغلي ومنزلي وأين خيولي والحلي والمناطق
أصلي ولا فتر من الأرض يحتوي عليه يميني إنني لمنافق
بلى إن على الله وسع لم أزل أصلي له ما لاح في الجو بارق

ومما زاد الحال سوءًا نمو التجارة في الشرق الأوسط في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، الأمر الذي أدى إلى بروز طبقة تجارية باذخة الثراء، مما وسع شريحة الفقراء وتفشي حدة الفقر الذي انتشر في مناطق كثيرة من ولايات الدولة العباسية. وقد أفرز هذا الوضع ثورات شعبية قامت في جنوب العراق مثل ثورة الزنج والزط، معلنة عصيانًا مسلحًا استمر عشرات السنين.

وبعد إخماد تلك الثورتين قامت ثورة القرامطة متحدية الدولة العباسية، فنشرت الإرهاب والقتل العشوائي، وتوجته بالاستيلاء على المسجد الحرام وقتل الحجاج واقتلاع الحجر الأسود سنة ٩٣٠م (٣١٧هـ)، وأخذه معهم الحجر الأسود للأحساء، وبقي فيها مدة اثنين وعشرين سنة. وهي سابقة لم يفكر فيها أعداء الإسلام من قبلهم.

كان زعيم القرامطة آنذاك هو ابن مؤسس إمارة الجنابيين، واسمه أبو طاهر سليمان بن أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وهو الذي قاد هجوم القرامطة على المسجد الحرام. ويقال أن أبا طاهر صعد على سطح الكعبة وأخذ ينشد قائلًا: (أنا بالله وبالله أنا، يخلق الخلق وأفنيهم أنا)، وهذا إن صح فهو عبث كبير وتأله لم يثبت في حق أبي طاهر.

وقصص دخول القرامطة المسجد الحرام منتشرة في المصادر السنية والشيعية والاسماعيلية والفاطمية، فيها تزوير كثير، ويحسن بنا أن نلم بواحدة منها هنا لنرى الصنعة فيها. فمما ينقل

ما رواه ابن الجزار بقوله: حدثني من أثق به أنه دخل بعض أصحاب القرمطي المسجد الحرام وهو راكب يمشي بدابته على بعض جسمي، وأنا مجروح ملقى بين القتلى، فخفت على نفسي وتحركت، فقال: أتقرأ سورة الفيل؟ قلت: نعم، قال: فأين تلك الطير الأبابيل؟ فقلت له: حيث شاء الله تعالى، فقال: يا حمار تعبدون الحجارة وتطوفون بها وتلثمون أركانها وترقصون حولها، ما بال رؤوسكم إذ سنوا لها سننا من الأباطيل لم يزلها منها إلا طنين السيوف؟ قال: فعلمت أنهم زنادقة وبقايا الردة[1].

ويروي الطبري في أحداث سنة ٨٩٢م (٢٧٩هـ) أن أحد ملاك الإقطاعيات الزراعية رفع شكوى يتظلم فيها من طلب دعاة القرامطة من أتباعهم الفلاحين تأدية خمسين صلاة في اليوم بدلًا من خمس، وهذا الطلب أثر على إنتاجية الفلاح. ومعلوم لديّ أن القرامطة لا يؤمنون بصلاة أو غيرها. لذا، كان هدفهم من الخمسين صلاة عرقلة ساعات العمل وتعطيل الإنتاج.

وقد ذكر ابن رزام في معرض حديثه عن فكر الإسماعيلية أنهم يرون أن الشرائع الدينية لم تُسن إلا لتقييد الجماهير وصيانة المصالح المادية للطبقة الحاكمة والطبقة الأرستقراطية، أما الفلاحون فلا حاجة لهم في الشرائع الدينية.

ليس من المستبعد أن قرامطة البحرين لا يهتمون بالدين الإسلامي أو حتى بدينهم الذي بشروا به، وقد وصلتنا تقارير تشي بشيء من عقائدهم التي لم يخلصوا لها أبدًا، وإنما اتخذوها للسيطرة على العامة، فهم قد أبطلوا العديد من فرائض الإسلام، خصوصًا من وصل منهم إلى درجة العارف بالحقيقة، وقالوا أن الصلاة والصيام قد نسخا، لهذا هجرت المساجد وبيعت في الأسواق في الأحساء والقطيف لحوم الحيوانات المحرمة كالكلاب والحمير والقطط. من هنا نفهم على وجه الدقة مدلول المثل

(١) كتاب العيون ج٤ ص٢٥٠.

الـذي أورده الميـداني: (أرق مـن ريـق النحـل، ومـن ديـن القرامطـة).

أخـيرًا، ليـس واضحًـا مـن مصادرنـا المتاحـة إن كان لقرامطـة البحريـن شـعائر دينيـة ولكـن الواضـح أنـه كان لهـم دار هجـرة ربمـا يعقـدون فيهـا مجالـس دينيـة، وكانـوا يعـدون القـرآن كتابًـا مقدسًـا ولكنهـم يؤولـون آياتـه تأويـلًا بعيـدًا عـن مفهـوم النقـل والعقـل، وهـو التأويـل الـذي وصفـه علـماء المسـلمين بالتأويـل الباطنـي.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum